

Looloo

www.helmelarab.net

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ القَسَمُ ..

التقط (فارس) نفسًا عميقًا ، من هواء (غرناطة) النقى ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة منتشية ، وهو يغادر خيمته ، مع أضواء الفجر الأولى ، ونسماته الرقيقة ، وفرد صدره عن آخره ، قبل أن يتجه إلى جواده ، ويربّت على عنقه فى مودة ، قائلًا :

ـ طاب صباحك يا (رفيق) .. كيف حالك اليوم ؟

أطلق الجواد العربى الأصيل صهيلًا خافتًا ، وضرب الأرض بحافره فى قوة ، وكأنما يرد تحية صاحبه ، ويجيب سؤاله ، وهزّ معرفته فى نعومة ، ثم ترك أصابع (فارس) تتحسّس عنقه فى رفق وحنان ، وهو يصدر همهمة خافتة منتظمة ، فقال (فارس) فى حماس :

ـ يلوح لى أنك مثلى ، تتوق لجولة طويلة ، بعد يومين من الخمول .. ما رأيك ؟ .. سأغسل وجهى ، وأنطلق معك فى جولة طويلة ، حتى يستيقظ (مهاب) والشيخ ، فمن الواضح أننا أوّل من استيقظ .

أتاه صوت (مهاب) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ خطأ يا فتى .. الشىء الوحيد الواضح ، هو أنك لم تزل غشاوة النوم عن عينيك بعد ..

التفت (فارس) إلى مصدر الصوت ، وأدهشه أنه لم ينتبه إلى وجود معلمه (مهاب) ، الذى كان يجلس إلى جوار خيمة الشيخ ، وقد تمنطق بسيفه ، وأمسك مقبضه فى استعداد وتحفّز ، وكأنما الحرب على الأبواب ، فسأله (فارس) فى قلق :

- ماذا حدث ؟ .. لماذا استيقظت مبكّرًا هكذا ؟ .. ولماذا تمسك سيفك هكذا ؟ .

بدا له وكأن (مهاب) قد انتبه الآن فقط إلى أنه يمسك مقبض سيفه ، فقد تطلّع إلى يده لحظة ، ثم حلّ أصابعه من حول المقبض ، وهو يتمتم :

- لا شىء .. فقط استعاد ذهنى ذكرى قديمة .

ربّت (فارس) على عنق (رفيق) مرة أخرى ، ثم اتجه إلى (مهاب) ، وجلس جواره ، ليسأله :

- أهى ذكرى عنيفة إلى هذا الحد ؟

شرد بصر (مهاب) لحظات ، قبل أن يجيب فى تأثر :

- أعنف مما تتصوّر .

كان ذهنه لحظتها يسترجع ذكريات قتال قاس رهيب ، التقت فيه السيوف ، بصليل اهتزّت له (قرطبة) كلها ، واشتعلت فيه النيران ، حتى لقد خُيّل للبعض أن الجحيم قد فتح أبوابه عن آخرها ، وأريقت فيه أنهار من الدماء والدموع ، وارتفعت صرخات النساء تشقّ عنان السماء ، وتمزّق نياط القلوب ..

ثم عادت عينا (مهاب) إلى عالم الواقع ، والتفتتا إلى (فارس) ، تتأملان ملامحه فى لوعة ، قبل أن يتمتم :

- يا إلهى ! .. كم تشبهه !

التقى حاجبا (فارس) ، وهو يقول :

- من تقصد يا (مهاب) ؟ .. من هذا الذى أشبهه ؟

لم يجب (مهاب) ..

لم يسمع حتى السؤال ..

كانت عيناه تشردان مرة أخرى ، وهو يستعيد ذلك الجزء من الذكرى ..

مشهد الفارس الباسل الهمام ..

أمير (قرطبة) ، بثيابه البيضاء ، وخوذته الفضية ، وحرملته ونطاقه الخضراوين ، وهو ينطلق على جواده الأبيض الشاهق ، وسيفه يجندل أعداءه ، ويضرب أعناقهم يمنة ويسرة ..

ثم أتت تلك الطعنة من الخلف .

الطعنة الغادرة ..

و ...

« من تقصد يا (مهاب) ؟ .. » .

كررُ (فارس) سؤاله ، وهو يهزّ كتفى (مهاب) هذه المرة ، ويجبره على التخلّى عن ذكرياته ، والعودة إلى عالمه ، فتطلّع إليه (مهاب) لحظة ، ثم قال :

- لا تشغل بالك بهذا يا فتى .

تطلّع (فارس) إلى عينيه فى عصبية ، وكاد ينفجر فى وجهه ، ويصارحه بأنه يعرف من يقصد ، إلا أن قواعد الأدب واللياقة ، التى لقنها إياه الشيخ ، منعته من قول هذا لمعلّم السلاح ، فنهض بحركة حادة ، وقال :

فليكن .. لن أكرّر سؤالى .

ابتسم (مهاب) ، وهو ينهض بدوره ، ويضع يده على كتفه ، قائلًا :

- ما رأيك فى مبارزة محدودة ، بعد أن تغتسل ؟

أجابه (فارس) فى توتر :

ـ ليس الآن .. صليل السيوف سيقلق نوم الشيخ .

اتسعت ابتسامة (مهاب) ، وهو يقول :

ـ أى شيخ ؟ .. أتظننى أجلس هنا ، لو لم يكن قد استيقظ بعد ؟

سأله (فارس) فى لهفة :

ـ استيقظ ؟! .. أين هو إذن ؟

التفت (مهاب) ، وأشار إلى التل الشرقى ، وهو يجيب :

ـ ها هو ذا .

استدار (فارس) إلى حيث يشير (مهاب) ، وكادت شهقة انبهار تنطلق من حلقه قوية ..

وكان المشهد ، الذى وقعت عليه عيناه ، مبهرًا بحق ، ويستحق مثل تلك الشهقة ..

كان الشيخ يجلس وحيدًا ، فوق قمة التل ، وقد اعتمد بمرفقه على ركبته ، فى جلبابه الفضفاض ، وأسند جبهته إلى راحته المفرودة ، والشمس من خلفه تشرق ، كقرص برتقالى هائل ، وتغمر الدنيا بخيوطها الذهبية الأولى ..

ولثوان ، لم يرفع (فارس) عينيه عن المشهد المهيب ، ثم لم يلبث أن تمتم :

ـ ما الذى يحدث اليوم بالضبط ؟

أجابه (مهاب) :

ـ بل قل : ما الذى حدث ، فى مثل هذا اليوم ؟

اعتصر (فارس) ذهنه فى سرعة ، وأجاب :

ـ سقطت (قرطبة) .

قال (مهاب) كلمة واحدة ، باقتضاب شديد ، وانفعال

جارف ، وحرارة لا مثيل لها :

ـ نعم .

نطقها بكل جوارحه وكيانه ، حتى لقد خُيِّل لـ (فارس) أن حروفها الثلاثة قد اشتعلت بنيران الوجد على شفتيه ، وسرت فى نفسه قشعريرة قوية ، وهو يقول :

ـ ولم يسقط العرب .

أجابه (مهاب) :

ـ ولن يسقطوا .   ـ التقت نظراتهما فى حزم وصرامة وقوة ، ثم قال (مهاب) :

ـ ما رأيك فى المبارزة الآن ؟

كان كل منهما يحتاج إلى إفراغ انفعاله الجارف ، فأجابه (فارس) :

ـ انتظرنى .. سأغتسل ، وأحضر سيفى .

ولم تمض دقائق ، حتى التقى سيفاهما ، فى قلب معسكرهما الصغير ، وتعالى صليل السيوف ، وهى تلتقى وتتباعد ، و (فارس) يبدى كل المهارات ، التى لقَّنه إياها (مهاب) ، إلا أن (مهاب) لم يلبث أن لهث ، مع طول النزال ، وتلاحقت أنفاسه ، أمام (فارس) بشبابه وقوته ، ولم يلبث (فارس) نفسه أن انقضَّ انقضاضة قوية ، وهوى بسيفه على سيف (مهاب) بضربة فنية مدروسة ، أودعها كل قوته ، فأفلت السيف من يد (مهاب) ، وسقط على بعد متر واحد منه ..

وهنا توقَّف النزال ، وأشار (فارس) بطرف سيفه إلى سيف (مهاب) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ معذرة يا (مهاب) .. هيا .. التقط سيفك .

ابتسم (مهاب) ، وقال :

ـ أحسنت يا تلميذى النجيب .. ولكن لماذا تطلب منى استعادة سيفى .. لقد ربحت المعركة ، والمفروض أن تطعننى بسيفك الآن .

أجابه (فارس) فى حزم :

ـ محــال .

اعتدل (مهاب) ، وقال ، وعيناه تجوسان بوجه (فارس) :

ـ ألأننى معلمك ؟

هزّ (فارس) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ بل هذا ما ينبغى أن أفعله دومًا ، فلن أطعن ما حييت رجلًا أعزل .

اتسعت ابتسامة (مهاب) ، واعتدل فى ارتياح ، فى حين انبعث من خلف (فارس) صوت يقول :

ـ أحسنت يا ولدى .

أعاد (فارس) سيفه إلى غمده فى سرعة ، والتفت إلى مصدر الصوت ، وهو يقول فى احترام شديد :

ـ أهو أنت يا سيدى ؟ .. معذرة .. لم أنتبه إلى عودتك من التل الشرقى .

وضع الشيخ يده على كتف (فارس) ، وهو يقول بكل رصانته ووقاره :

ـ كنت أستعيد بعض الذكريات هناك يا ولدى .. ذكريات سقوط (قرطبة) ، ونهاية عهد عظيم من العهود العربية .. اليوم يوافق ذكراها الحادية والعشرين .

ثم توقف ، والتفت إلى (فارس) ، وتطلع إليه لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وذكرى دخولك عالم الفرسان يا ولدى .

توقف (فارس) ، وهتف :

ـ يا إلهى ! .. هذا صحيح .. فى مثل هذا اليوم ، منذ عام كامل ، ارتديت لأول مرة تلك الثياب البيضاء ، والخوذة الفضية .

قال الشيخ فى حزم :

ـ ولأول مرة أيضًا ، أقسمت قسم الفرسان .

امتلأت نفس (فارس) بنشوة قديمة ، وهو يقول :

ـ نعم يا سيدى .. قسم الفرسان .. أن أقاتل دائمًا فى سبيل الله ، والحق ، والعدل ، والوطن .. وألا أترك ضعيفًا فى محنة ، أو أمس شيخًا ، أو طفلًا ، أو امرأة بسوء ، أو ...

قاطعه الشيخ :

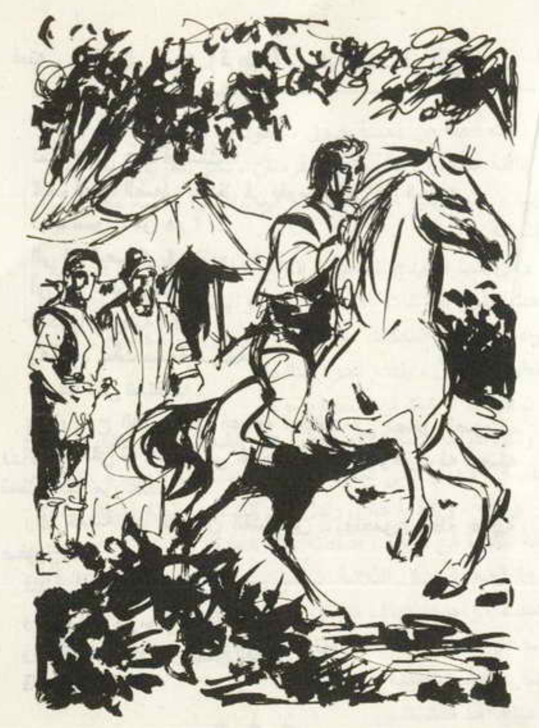
ـ وأنت تحافظ على القسم جيدًا يا ولدى .. وهذا سر قوتك .

تنهد (فارس) ، وقال :

ـ ليت الجميع يقسمون قسم الفرسان هذا .. لو فعلوا لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

قال الشيخ فى أسى :

ـ من الواضح أن أحدًا لم يعد يهتم بمثل هذه الأمور يا ولدى .. إننا نزداد ضعفًا فى (الأندلس) ، حتى أن بعض فرسان (قشتالة) يعبرون حدودنا ، بين الحين والحين ، وينهبون خيراتنا ، دون أن يجدوا من يتصدى لهم .. من الواضح أنها بعض المناوشات المدروسة ، لمعرفة قوتنا ، ودراسة الثغرات فى حدودنا وجيوشنا .



انطلق (فارس) على الفور ، ووثب على صهوة جواده (رفيق) ، وجذب معرفته ، فأطلق (رفيق) صهيلًا قويًّا ..

احتقن وجه (فارس) ، وهو يقول فى مرارة :

ـ هل بلغنا هذا الحد ؟!

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ ومن يدرى ما الذى يمكن أن نبلغه غدًا يا ولدى .

شعر (فارس) بغصة فى حلقه ، وبمرارة لا حد لها تجتاح نفسه ، فغمغم :

ـ معذرة يا سيدى .. هل تسمح لى بالانصراف ؟ .. إننى أحتاج إلى بعض الهواء النقى .

تمتم الشيخ فى حنان :

ـ اذهب يا ولدى .. اذهب .

انطلق (فارس) على الفور ، ووثب على صهوة جواده (رفيق) ، وجذب معرفته ، فأطلق (رفيق) صهيلًا قويًا ، وضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين ، ثم انطلق وسط ربوع (غرناطة) ، وعلى متنه (فارس) ..

وتمتم (مهاب) :

ـ كم يشبه والده !

أجابه الشيخ ، بعد تنهيدة حارة :

ـ أتعشم ألا يشبهه فى نهايته .

ولم يعلّق (مهاب) بحرف واحد ، وإن خفق قلبه فى عنف ، وارتجف بين ضلوعه فى قلق ..

أما (فارس) ، فقد انطلق على متن جواده بين ربوع (غرناطة) ، وراح يتجه على نحو غريزى إلى الحدود ، وعلى مقربة منها اعتلى مرتفعًا عشبيًا صغيرًا ، وتوقّف بجواده على

قمته ، وتطلع إلى طريق (قرطبة) ، وقلبه يهتف فى أسى ..

لمـاذا ؟ ..

لماذا يا (قرطبة) ؟ ..

لماذا تخلى عنك فرسانك ؟ ..

كيف تركوا الضعف يتغلغل فى نفوسهم إلى هذا الحد ؟ ..

كيف نسوا ، من هم ؟ ..

إلى أى شعب عريق ينتمون ؟ ..

أى دين عظيم يعتنقون ؟ ..

لماذا يا (قرطبة) ؟ ..

وفجأة ، شقت سمعه صرخة ..

صرخة أنثى تستغيث ..

وبكل روح الفارس فى أعماقه ، التفت إلى مصدر الصوت ، ورأى ما التقى له حاجباه فى غضب وصرامة ، وقفزت له قبضته تستل سيفه من غمده ..

رأى خمسة من الفرسان القشتاليين ، يهاجمون قافلة عربية صغيرة ..

قافلة غير مسلحة ..

ولم يتردد (فارس) لحظة واحدة ..

وانطلق كما ينبغى أن يفعل الفارس ..

فارس الأندلس .

★ ★ ★

٢ ـ القتال ..

كانت قافلة من خمسة خيول ، وهودج واحد صغير ..

قافلة مسالمة ، بلا سلاح أو فرسان ، تعبر الطريق من قرية إلى قرية ، وأوقعها سوء حظها فى براثن خمسة من فرسان (قشتالة) ..

ومن قلب الهودج الصغير ، انتزع أحد القشتاليين امرأة شابة ، راحت تطلق صرخات الاستغاثة ، وهو يلقيها أمامه ، على متن جواده ، مطلقا ضحكات ساخرة ، وأحد الرجال الخمسة ، الذين يمتطون الخيول ، يندفع نحوه صائحا :

ـ اتركها .. إياك أن تمسها بسوء .

ولكن فارسا قشتاليا آخر انقض على الشاب ، وهو يطلق ضحكة مجلجلة ، وهوى على الشاب بسيفه ، فأصابه فى صدره ، وألقاه عن جواده ، وعندما حاول رجل آخر التدخل ، طعنه قشتالى ثالث طعنة غادرة فى ظهره ، أسقطته جثة هامدة ..

وتراجع الرجال الثلاثة الباقون ، أمام أسلحة القشتاليين الخمسة ، وأحدهم يهتف فى ثورة :

ـ عار عليكم أن تفعلوا هذا .. نحن عزل من السلاح ، وأنتم فرسان ، ولستم طغمة من الأشرار .

صاح أحد القشتاليين :

ـ اخرس أيها الوغد .

وضرب عنقه بسيفه فى قسوة ، فقطعت رأسه عن جسده ،

وصرخ أكبر الرجلين الباقيين سنًا فى هلع ولوعة ، وهو يلقى جسده على القتيل المبتور الرأس :

ـ ولدى .. ولدى .

قهقه القشتاليون فى سخرية ، وقال أحدهم ، والمرأة تواصل الاستغاثة :

ـ إذن فهو ولدك .. فلتفخر ببطولته إذن ، ولتعلق رأسه على باب دارك .

صرخ الشيخ فى مرارة وكراهية :

ـ ستدفعون الثمن أيها الوحوش .. ستدفعون الثمن .

قهقه القشتالى مرة أخرى ، وقال :

ـ من سيجبرنا على دفع الثمن ؟ .. أنت ؟!

زاغت عينا الشيخ ، وهو يشعر بالمرارة والعجز ، ثم لم يلبث بصره أن تركّز فجأة على نقطة ما خلفهم ، وهو يقول :

ـ بل هو سيفعل .

لم يدر لماذا نطق هذه العبارة ، وهو يشير إلى (فارس) ، الذى يأتى من بعيد ؟ ..

لماذا بدا له لحظة ، أن هذا الشاب ، الذى يحمل سيفه ، ويهاجم بكل جرأة وبسالة ، خمسة من فرسان (قشتالة) ، هو أمله الوحيد فى الثأر لولده القتيل ، وشقيقه المصاب ؟! ..

ولكنه نطقها دون وعى ..

نطقها فالتفت القشتاليون الخمسة إلى حيث يشير ، وبدا التوتر على وجوههم لحظات ، ثم لم تلبث أساريرهم أن انبسطت ، وأحدهم يقول ساخرًا :

ـ فارس واحد ؟!

هتف الثانى متهكما :

ـ يا له من فارس شجاع ، دون درع أو مجن ، ويرتدى جواده دون سرج أو لجام ! .. بالله عليكم دعوه لى يا رجال .

قال ثالث :

ـ هو لك يا صديقى .. أتظننا نتآزر لمقاتلته ؟

قالها وأطلق ضحكة ساخرة عالية ، ابتسم لها الثانى ، وهو يلتقط قوسًا من جعبته ، ويضع نهايته فى وتر قوسه ، ثم يجذب الوتر وهو يقول :

ـ هيا أيها الشيخ .. استعد لتتلو صلاتك على منقذك الشهم .

كان يجيد التصويب ، ويسدد سهمه إلى صدر (فارس) تمامًا ، عندما أطلقه من قوسه ، ولكن (فارس) رأى السهم ينطلق نحوه ، فجذب معرفة جواده ، وصاح فى حزم :

ـ هيا يا (رفيق) .. أرهم مهارتك يا صديقى .

ووثب (رفيق) ..

وثب وثبة قوية ، مدهشة ، جعلته يتجاوز السهم المسدد إليه ، ويعبره فى مشهد خرافى أنيق ، اتسعت له عيون القشتاليين الخمسة ، وأحدهم يقول مبهورًا مشدوها :

ـ أى جواد هذا ؟!

أخذتهم المفاجأة ، وألجمتهم لحظات ، فلم يفيقوا منها ، إلا و (فارس) على قيد خطوات منهم ، يلوح بسيفه ، ويصرخ :

ـ الله أكبر .

وقبل أن يرفعوا سيوفهم فى وجهه ، كان سيفه يطيح بأحدهم عن جواده ، ثم يضرب حزام سرج الثانى ، فيفقده توازنه ، ويلقيه أرضًا ..

وهنا فقط صاح قائد الفرسان الخمسة ، وهو يتراجع بجواده ، حاملًا المرأة على متنه ، وملوِّحًا بسيفه ، هاتفًا :

ـ اقتلوه .. اقتلوه يا رجال .

كان إطلاق الأمر سهلًا ، أما التنفيذ ، فلم يكن أقل صعوبة من انتزاع أحد أسنان التمساح ، فى الصباح الباكر ، قبل أن يتناول إفطاره ..

لقد تحرّك سيف (فارس) فى قوة وسرعة ومهارة ، والتقى بسيفى قشتاليين ، وصال بينهما وجال ، وهما يتراجعان أمامه فى دهشة وقلق ، فى حين نهض القشتالى الذى سقط عن جواده ، وهو يقول فى غضب :

ـ ستدفع الثمن غاليًا أيها العربى .

كان يستعد للانقضاض على (فارس) من الخلف ، وطعنه فى ظهره ، لولا أن هبّ الشيخ العربى ، فانتزع سيف القشتالى الصريع ، واندفع نحو الثانى ، الذى قتل ولده وأصاب شقيقه ، فى نفس اللحظة التى كان يهمّ فيها بطعن (فارس) ، وصاح به :

ـ هأنذا أقتص لولدى وشقيقى أيها الحقير .

فوجئ القشتالى بهذا الهجوم ، فاستدار يواجه الشيخ ، الذى لم يمهله ، وإنما انقض بسيفه على صدره ، ودفعه بكل قوته ، وهو يصرخ :

ـ هل رأيت أيها القشتالى ؟ .. مشيئة الخالق (عزّ وجلّ) جعلتنى أنتقم ، قبل أن تبرد دماء ولدى .

جحظت عينا القشتالى ، والسيف يغوص فى صدره ، ثم لم يلبث أن هوى تحت قدمى الشيخ جثة هامدة ..

أما (فارس) ، فقد قاتل القشتاليين ببسالة نادرة ، ومهارة لا حدود لها ، على الرغم من أنهما حاولا محاصرته من الجانبين ، إلا أن سيفه أطاح بسيف أحدهما بضربة ماهرة ، ثم ارتفعت قدمه تدفع القشتالى فى شدة ، وتلقيه عن جواده ، واستدار يواجه الثانى وحده ..

وفى توتر لا حدود له ، تراجع قائد القشتاليين ، وغمغم :

ـ لو أن كل فرسان العرب هكذا ، لما دام بقاؤنا فى (الأندلس) عامًا آخر .

وجذب عنان جواده ، ثم انطلق به نحو الحدود ..

وصرخت المرأة الشابة :

ـ النجدة .. النجدة أيها الفارس العربى .

التقطت أذنا (فارس) هذا النداء ، ولكنه كان يواصل قتاله مع القشتالى الأخير ، وزميله الذى نهض ليتابع القتال ، ولكن الشيخ وزميله هاجماه ، وانتزعا منه سلاحه ، وطعناه بسيف زميله طعنة قاتلة ..

وتبارز (فارس) والقشتالى فى عنف ، وارتفع صليل سيفيهما فى المكان ، والقشتالى يقول :

ـ مهارة لا بأس بها أيها العربى ، ولكنك لن تفوز فى النهاية .

قال (فارس) ، وهو يهوى على سيفه بضربة عنيفة :

- حقًا .. من أخبرك بهذه الحماقة ؟

صد القشتالى ضربته ، وهو يقول :

- سيفى هذا

جذب (فارس) سيفه ، ثم انقضَّ به مرة أخرى على سيف القشتالى ، وأداره بحركة سريعة ، أربكت القشتالى ، الذى لم يعد يدرى أين يتصدّى للسيف ، ثم لم يلبث أن شعر بضربة قوية على قبضته ، انتزعت منه سيفه ، وألقته بعيدًا ، ثم رأى سيف (فارس) أمام عنقه تمامًا ، فانتفض قلبه بين ضلوعه ، وأدرك أنه ميت لا محالة ، حتى أن الدهشة غمرته ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، عندما سمع (فارس) يقول :

- هيا .. انصرف .

حدّق القشتالى فى وجهه بدهشة ، مغمغمًا :

- ماذا ؟ !

أجابه (فارس) فى صرامة :

- انصرف .. عد إلى بلادك .

صاح الشيخ :

- هل ستتركه يمضى ؟

أجابه (فارس) :

- بالطبع .. لن أقتل رجلًا أعزل .

قال الشيخ فى غضب :

- وماذا عنه ؟ .. لقد هاجمنا ونحن عزّل ، وقتل رفاقه ابنى وشقيقى ، وزوج شقيقتى ، دون شفقة أو رحمة .

قال(فارس) فى حزم :

- هذا الأمر غير قابل للمساومة يا رجل .. دع لهم أساليبهم ، ولنحتفظ نحن بعراقتنا .

ثم التفت إلى القشتالى ، مستطردًا :

- هيا .. انصرف يا رجل .

انطلق القشتالى مبتعدًا ، غير مصدّق أنه نجا ، فى حين قال الشيخ فى حدة :

- لن نهزمهم بالشهامة والمروءة .

مط (فارس) شفتيه ، وقال :

- من يدرى ؟ .. ربما ننجح فى هزيمتهم ، لو تمسّكنا بهما .

لوّح الشيخ بذراعيه ، صائحًا :

- إنهم لا يعرفون شيئًا من هذا .. لقد هاجمونا ، واختطفوا امرأة ، و ...

المرأة !!

استعادت أذنا (فارس) استغاثتها بغتة ، وتذكّرها دفعة واحدة ، عندما ذكرها الشيخ ..

وفى هلع ، استدار إلى حيث كان يقف قائد القشتاليين ، واضعًا المرأة أمامه ، على متن جواده ، وشعر بغضب عارم يعصف به ..

لقد بلغ القشتالى والمرأة الحدود ، وتجاوز جوادهما مملكة (غرناطة) ، إلى أرض القشتاليين ، ولم ينقذ هو المرأة ، كما كان ينبغى أن يفعل ..

لم يف بالقسم ..

قسم الفرسان .

* * *

٣ ـ الحــدود ..

جذب (فارس) معرفة جواده فى حزم ، واستعدَّ للانطلاق خلف القشتالى ، فهتف به الشيخ :

ـ ماذا ستفعل يا فتى ؟

أجابه (فارس) :

ـ سأستعيد المرأة بإذن الله .

صاح الشيخ :

ـ هل جننت ؟ .. أتعبر حدود القشتاليين ، وتضع نفسك بين أنياب الذئاب ، من أجل امرأة ؟ ! .. إنها ليست حتى امرأة حرة .. إنها جارِية ، ابتعناها منذ ساعة واحدة ، لنهديها إلى شيخ قبيلتنا .

أجاب (فارس) فى صرامة :

ـ ويحك يا رجل .. أنترك إحدى نسائنا للقشتاليين ، لمجرّد أنها جارية ؟

قال الشيخ ، وهو يحاول أن يثنيه عن الذهاب :

ـ ليست حتّى جارية عربية .. إنها تركية .

جذب (فارس) جواده ، وهو يقول :

ـ فليكن يا رجل .. لقد استغاثت بى المرأة ، والقسم الذى أقسمته يجبرنى على إغاثتها ، حتى ولو اضطررت لعبور حدود الجحيم نفسه من أجل هذا .

قالها وانطلق بجواده نحو الحدود القشتالية ، فهتف الشيخ فى ارتياع :

ـ يا ويلتاه ! .. سيفقد الفتى حياته من أجل حماقة .



لقد بلغ القشتالى والمرأة الحدود ، وتجاوز جوادهما مملكة (غرناطــة) ، إلى أرض القشتاليين ..

أجابه الشاب الذى بقى من قافلته الصغيرة :
ـ بل سيعيد أمجاد العرب يا أبتاه .
التفت إليه الشيخ ، واتسعت عيناه فى ذعر ، عندما رآه يثب على صهوة جواده ، فهتف به :
ـ إلى أين يا (عابد) ؟ .. إلى أين يا ولدى ؟
أجابه فى حزم :
ـ سألحق به يا والدى .. من يدرى ؟ .. ربما احتاج إلى نصير .
وبكل قوته ، انطلق خلف جواد (فارس) ..
عبر الحدود ..

★ ★ ★

لم يكد القشتالى يعبر حدوده ، حتى عاوده شعوره بالثقة والقوة ، فهتف وهو يضرب ظهر المرأة بكفه :
ـ هل رأيت يا جميلتى ؟ .. لقد أصبحنا فى أرضى .. أصبحت ملكى إلى الأبد .
انهمرت دموعها فى مرارة ، فأوقف جواده ، وأنزلها عن متنه ، وهبط خلفها ، وهو يسألها فى دهشة :
ـ ما الذى تعنيه دموعك هذه ؟ .. أى فارق بين أن يمتلكك عربى أو قشتالى ؟ .. أنت مجرَّد جارية .
هتفت فى مرارة :
ـ ومن قال إننى قد استسلمت لهذا ؟ .. إننى لم أولد جارية .
أطلق ضحكة ساخرة ، وهو يقول :
ـ لماذا وُلدت إذن ؟ .. خادمة ؟
رفعت رأسها فى اعتداد ، وهى تجيب :

ـ بل أميرة أيها الوقح .
اتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يكرِّر :
ـ أميرة ؟!
كانت باهرة الحسن حقًا ، لها وجه صبوح ، وعينان فى لون السماء الصحو ، وشعر كنهر أسود فاحم ، ينسدل على كتفها ، تحيطه مع جبهتها من أعلى سلسلة من اللؤلؤ ، تنتهى بفصٍّ من الفيروز ، يتوسَّط جبهتها ، ويضفى المزيد من الجمال على بشرتها الوردية ، وشفتيها الحمراوين الصغيرتين ..
وفى حيرة ، واصل القشتالى :
ـ ما الذى أتى بك إلى هنا إذن ؟
ترقرق الدمع فى عينيها ، وهى تقول :
ـ أنا الأميرة (عصمت) .. ابنة سلطان تركى ، كانت قافلتى تعبر (أوروبا) ، عندما وقعت أسيرة فى يد فرنسى قذر ، لم يلبث أن باعنى كجارية هنا ، فى (الأندلس) .
بقى يحدِّق فى وجهها لحظة ، ثم أطلت من عينيه نظرة جشعة ، وهو يقول :
ـ الأميرة (عصمت) ! .. يا لك من محظوظ يا (رافاييل) .. ترى كم تبلغ فدية أميرة .
هتفت فى أمل :
ـ الكثير .. والدى حتمًا مستعد لدفع عشرة أحمال من الجواهر واللآلئ والذهب ، لو أعدتنى إليه .
برقت عيناه بمزيد من الجشع ، وهو يقول :
ـ وربما أكثر .. من يدرى ؟

ثم جذبها إليه بغتة ، من شعرها الحريرى ، وهو يستطرد فى سخرية :

ـ هذا لو صدقت قصتك هذه .

أطلقت صيحة ألم ، وهى تقول :

ـ أنا صادقة .. أقسم لك .

فتح شفتيه لينطق بشىء ما ، إلا أن شفتيه تجمّدتا فى موضعهما ، وهو يرهف سمعه فى انتباه ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ عجبًا ! .. هل جرؤ على فعلها ؟

استدار يتطلّع إلى الطريق الذى أتى منه ، واتسعت عيناه فى دهشة ، عندما وقع بصره على (فارس) ، الذى يقترب بسرعة ، على صهوة جواده ، وهو يتتبّع آثار جواده هو ، ثم غمغم فى حنق :

ـ إذن فقد فعلتها أيها العربى .

وجذب إليه (عصمت) فى حزم ، وحملها ليلقيَها مرة أخرى على متن جواده ، ثم وثب يعتليه ، وهو يقول فى حدّة :

ـ فليكن أيها العربى .. هيا .. اتبعنى لو أنك ترغب فى هذا حقًّا ، ولنتوغل معًا فى أرضنا .. أرض القشتاليين .

وانطلق مبتعدًا عن الحدود ، ومتوغّلًا فى مملكته ..

مملكة الأعداء ..

★ ★ ★

انطلق (فارس) فى مملكة القشتاليين ، وهو يتتبّع آثار حوافر جواد القشتالى ، التى انحفرت على الأرض ، وغمغم وهو يتطلّع أمامه :

ـ هذا الوغد يقترب أكثر وأكثر من وكره ، ويجذبنى خلفه ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحاول تمييز صوت ما ، بخلاف وقع حوافر جواده ، ثم لم يلبث أن ميّز وقع حوافر جواد آخر يتبعه ، فقال فى قلق :

ـ هل سقطت فى مخ ما ؟

جذب معرفة جواده ، وانحرف به داخل دغل صغير ، وصمت يراقب ذلك القادم ، الذى بلغ الدغل بدوره ، فانقضّ عليه فى عنف ، وأسقطه عن ظهر جواده ، ثم استلّ سيفه ، وهتف :

ـ خسرت أيها الـ ..

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى وجه الرجل ، قبل أن يهتف فى دهشة :

ـ ولكنك أحد رجال القافلة .

أجابه الشاب :

ـ نعم أيها الفارس .. أنا (عابد) .. أصغر أبناء الشيخ .

أعاد (فارس) سيفه إلى غمده ، وهو يقول :

ـ ولماذا تتبعنى يا (عابد) ؟

أجابه الشاب ، وهو ينهض فى حماس :

ـ ربما تحتاج إلى معاونة .

تطلّع إليه (فارس) فى صمت لحظة ، ثم قال :

ـ حسن .. هيا بنا .. كلما أمكننا اللحاق بالقشتالى مبكرًا ، زادت فرصتنا فى الخروج من هنا على قيد الحياة .

انطلقا بجواديهما ، يتتبعان آثار حوافر جواد القشتالى ، حتى بلغا دغلًا آخر مع الظهر ، وقال (عابد) :

ـ هل نتبعه إلى الداخل ؟

أجابه (فارس) فى حسم :
ـ ألديك حل آخر .
هزّ (عابد) رأسه نفيًا ، دون أن يجيب ..
ودلف الاثنان إلى الدغل فى صمت ..
ولم يكن تتبع الأثر داخل الدغل ، بنفس السهولة خارجه ، ولكن (فارس) ، الذى تدرّب جيدًا على هذا الأمر ، استطاع مواصلة المطاردة فى إصرار ، حتى سأله (عابد) فى تردّد :
ـ أين تعلّمت هذا ؟
أجابه (فارس) ، دون أن يرفع عينيه عن الأرض :
ـ إننى أفعله ، منذ نعومة أظفارى .
هتف (عابد) مبهورًا :
ـ حقًّا ؟!
ثم تحرّك بجواده ، ليوازى جواد (فارس) ، وهو يستطرد :
ـ ومن أين لك بالمعلّم ، الذى يلقنك كل هذا ، وأنت بعد ..
تجاوز جواده جواد (فارس) ، دون أن يدرى ، ولم يكد يفعل حتى صرخ (فارس) فجأة :
ـ احترس .
ومع صرخة (فارس) ، شعر الشاب بذلك الشىء ، الذى مسّ قوائم جواده ، ثم رأى كتلة من الخشب تهوى من فوق شجرة قريبة ، وفى مقدمتها ثلاثة أسهم حادة ، فجذب عنان جواده بحركة غريزية ، وأطلق الجواد صهيلًا قويًا ..
ثم انغرست الأسهم الثلاثة فى صدر الجواد ..
وسقط ..

سقط الجواد جثة هامدة ، وسقط عن متنه (عابد) ، الذى راح يهتف فى هلع :
ـ ما هذا ؟ .. من أين جاء هذا ؟!
أجابه (فارس) ، وهو يدير عينيه فيما حوله بحذر :
ـ إنه فخ قشتالى .. حبل خفى ، يرتطم به جوادك ، فتتحرّر كتلة الخشب من أحد طرفيها ، وتندفع بوساطة حبل آخر نحوك ..
سأله (عابد) ، وهو ينهض متوترًا :
ـ وكيف عرفت بوجوده ؟
أشار (فارس) إلى الأرض ، وهو يقول :
ـ كانت أوراق الشجر الجافة أكثر كثافة فى هذا الموضع ، مما جعلنى أشك فى وجود شىء ما أسفلها .
ثم مد يده ، وجذب (عابد) ، ليجلس خلفه ، على صهوة (رفيق) ، وهو يتابع :
ولكن من الواضح أن خصمنا خبير بمثل هذه الفخاخ ، وعلينا أن نكون أكثر حذرًا .
قال (عابد) فى دهشة :
ـ أكثر من هذا ؟
أجابه (فارس) فى حزم :
ـ أكثر بكثير .
ومضى يتوغّل فى الدغل أكثر وأكثر ..

* * *

تجاوز (رافاييل) القشتالى الدغل ، وانطلق بجواده عبر سهل طويل ، وهو يُطلق ضحكة ساخرة ، ويقول للأميرة (عصمت) :

ـ ها نحن ذا فى قلب (قشتالة) ، وربما وقع منقذك الشهم فى واحد من الفخين ، اللذين نصبتهما له .

غمغمت فى لهجة استفزازية :

ـ إنه لا يبدو لى من ذلك الطراز ، الذى يمكن أن يقع ببساطة فى فخ ما .

رمقها بنظرة غاضبة ، وهو يقول :

ـ هل تصوَرت هذا ؟

قالت ، وهى تتمادى فى استفزازه :

ـ قتاله ينبئ بهذا ، فلقد رأيت عشرات الفرسان ، فى الحفلات الملكية ، ولكن أحدهم لم يبزّه .

هتف محنقًا :

ـ هراء .

ثم لكزها بمرفقه ، وهو يضيف :

ـ فارسك المغوار هذا مجرَد ظلّ أكبر من حجمه ، لو حجبت عنه الشمس يختفى .

بدت فى لهجتها رنة ساخرة ، وهى تقول :

ـ وهل يمكنك أنت حجب الشمس ؟

التقى حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ اسمعى أيتها الأميرة المزعومة .. لو واصلت التحدّث بهذا الأسلوب ، سيكون على والدك خصم ثمن لسانك من فديتك .

انتابها الذعر لما يقول ، فأطبقت شفتيها ، ولاذت بالصمت التام ، وهو ينطلق بجواده ، حتى لاح له مخيّم صغير ، فهتف :

ـ يا لحسن الحظ ! .. إنهم فرسان القصر .



انتابها الذعر لما يقول ، فأطبقت شفتيها ، ولاذت بالصمت التام ، وهو ينطلق بجواده ..

رأت أمامها عشرة من الفرسان ، فى ثياب متميزة ، وكل منهم يحمل مجنًا كبيرا ، تزينه صورة لأسد ضخم ، وهم يستقبلون (رافاييل) ، الذى يحمل مجنًا مماثلا ، بهتاف مرح ، ويقولون :

ـ مرحى يا (رافاييل) .. من أين حصلت على تلك الساحرة ؟

أوقف (رافاييل) جواده بينهم ، وهو يقول فى زهو :

ـ من (غرناطة) .

أطلقوا ضحكات مرحة ساخرة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ يا لك من داعر زنديق ! .. هل اقتحمت أرض العرب ، من أجل امرأة ؟

وهتف ثان :

ـ أشتريها منك بألف جنيه ذهبى .

أجابهم (رافاييل) ، وهو يهبط مع (عصمت) عن جواده :

ـ إنها أميرة تركية .

قهقهوا ضاحكين فى سخرية ، وهتف ثالث :

ـ فليقطع ذراعى لو لم تكن قد خدعتك ، ووعدتك بفدية ضخمة لإطلاق سراحها .

احتقن وجهه فى سخط ، فى حين شحب وجهها هى ، وانفجر الفرسان العشرة ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال أحدهم :

ـ هيا يا (رافاييل) .. لا تقل إنك ستستأثر بهذه الفاتنة وحدك .

اعتدل (رافاييل) ، وقال :

ـ بل هى جائزة للفائز .

انكمشت (عصمت) فى ذعر ، فى حين سأله الفرسان فى شغف .

ـ الفائز فى ماذا ؟

أجاب (رافاييل) ، وهو يشير بإبهامه إلى الدغل البعيد :

ـ لقد تركت فى هذا الدغل فارسًا عربيًا أحمق ، اخترق الحدود إلى هنا ، وهو يتصوّر أنه سينجح وحده فى استعادة أميرتنا المزعومة .

هتف أحد الفرسان ساخرًا :

ـ فارس عربى واحد .

أما الثانى ، فقد استلّ سيفه من غمده ، وقال فى صرامة :

ـ أمجنون هو أم غبى ؟

ابتسم (رافاييل) ، وقال :

ـ سنعرف عندما نقتنصه .

ثم جذب الأميرة فى عنف ، إلى قائم خشبى سميك ، وراح يقيّدها إليه فى قسوة ، مستطردًا :

ـ هذه هى المسابقة يا رفاق .. رحلة صيد إلى الدغل ، يشترك فيها الجميع ، لاقتناص الفارس العربى ، والفائز الذى يعود برأسه ، يحصل على الأميرةِ المزعومة ، وفديتها .

تعالت صيحاتهم المرحة ، وهتف أحدهم ، وهو يلوّح بسيفه عاليًا :

ـ يا لها من جائزة ! .. ومتى تبدأ رحلة الصيد ؟

أجاب (رافاييل) ، وعيناه تبرقان فى قسوة :

ـ الآن .

تصايحوا فى مرح ، وقال أضخمهم بنية :

ـ هيا يا رفاق ، سنمزّقه إربًا ، قبل مغيب الشمس ، ونعود لنحتفل معًا .

وهنا هتفت (عصمت) :

- يبدو أن رفيقكم لم يخبركم عمدًا ، أن هذا الفارس ، الذى ستنطلقون لصيده ، فى رحلة مرحة ، قد جندل وحده أربعة منكم ، روت دماؤهم الأرض العربية فى (غرناطة) .

التفت إليها (رافاييل) فى غضب هادر ، فى حين احتقنت وجوه الجميع فى شدة ، وصاح أحدهم :

- أهذا صحيح يا (رافاييل) ؟

لم يستطع (رافاييل) النطق ، لشدة حنقه وغضبه ، فاكتفى بهزّ رأسه إيجابا ، وهنا تفجّر الغضب فى وجوه الفرسان العشرة ، وقال أحدهم فى عنف :

- فى هذه الحالة لا يصبح الأمر مجرّد رحلة صيد وقنص .

صاح آخر :

- إنه الثأر .

وارتجفت (عصمت) فى قوة ، عندما هتف العشرة فى آن واحد :

- الثأر .

ثم قفزوا إلى صهوة جيادهم ، وانطلقوا بكل الغضب والثورة نحو الدغل ..

ونحو (فارس) .

★ ★ ★

٤ ـ الفـــارس ..

انحنى (فارس) فى حرص ، يفحص جذع شجرة ضخم ، والعشب المحيط به . ثم اعتدل وقال لـ (عابد) :

- ابتعـد .

ابتعد (عابد) بقدر الإمكان ، وهو يتطلّع إلى تلك النقطة ، التى غاص فيها سيف (فارس) ، وراح يدفع العشب ، و ...

وفجأة انطلق رمح من وسط العشب ، وانغرس فى جذع الشجرة بقوّة ، فانتفض جسد (عابد) ، وهو يهتف :

- أفخّ ثان ؟!

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، وقال وهو ينتزع الرمح من جذع الشجرة :

- نعم .. محاولة ثانية فاشلة للتخلّص منّا .

غمغم (عابد) ، وهو يلهث انفعالًا وانبهارًا :

- بل قل منك ، فلا أحد يعلم أننى أتبعك .

تطلّع إليه (فارس) لحظة فى صمت ، اتجه إلى جواده ، وقال :

- هيا .. سنواصل السير .

وثب على صهوة (رفيق) ، وجذب (عابد) ليجلس خلفه ، وهمّ بجذب معرفة جواده الأصيل ، عندما اعتدل فجأة ، وأرهف سمعه ، وقال فى حزم :

- جياد تقترب .. عدد كبير من الجياد .

انحبست أنفاس (عابد) ، وهو يقول :

- القشتاليون .

دفع (فارس) جواده بضع خطوات إلى الأمام ، والتقى حاجباه وهو يراقب الفرسان العشرة ، وعلى رأسهم (رافاييل) ، ينطلقون نحو الدغل ، وهتف (عابد) فى هلع :

ـ إنها كوكبة من فرسان (قشتالة) .. إنهم يتجهون إلينا حتمًا .. لن ننجو منهم أبدًا .

قال (فارس) فى صرامة :

ـ اصمت .

أطبق (عابد) شفتيه على مخاوفه وفزعه ، فى حين لاذ (فارس) بالصمت التام ، وهو يراقب الفرسان القادمين ، ويحاول دراسة تسليحهم وقوتهم ، ويسترجع فى ذهنه كل ما تعلّمه فى هذا الشأن ..

« فرق كبير بين الشجاعة والحماقة ، فمن الشجاعة أن أقاتل عدوًا يفوقنى قوّة ، ومن الحماقة أن أقاتل جيشًا بمفردى .. » .

« فى كثير من الأحيان ، وعندما لا تكون القوة هى الطريق إلى النصر ، تطلّ الحيلة برأسها ، وتفوز بالمعركة .. » .

« لا تضع عنقك أبدًا تحت سيف خصمك ، بل راوغه ، واخدعه ، واجعله هو يضع رأسه تحت سيفه .. » .

استعاد ذهنه ، فى لحظة واحدة ، كل تلك العبارات ، التى لقّنه إياها معلّم السلاح (مهاب) ، وانتصبت قامته فى اعتداد ، على صهوة جواده ، وقال فى صوت حازم :

ـ نعم .. ربّما كان هذا هو المخرج الوحيد .

سأله (عابد) مرتجفًا :

ـ وما هذا ؟

أجابه وهو يجذب معرفة جواده ، ويعود به إلى داخل الدغل :

ـ إن أحدًا لا يعلم بوجودك معى .

قال (عابد) فى دهشة :

ـ وما الذى يمكن أن يصنعه هذا ؟

أجاب (فارس) فى اقتضاب حازم :

ـ الكثير .

ولم يجد (عابد) الفرصة لقول آخر ..

★ ★ ★

بلغ الفرسان القشتاليون الدغل ، والدماء تفور فى عروقهم ، من فرط الغضب والثورة ، واستوقفهم (رافاييل) عند أوّل الدغل ، وهو يقول :

ـ سنقسم أنفسنا إلى ثلاث فرق يا رفاق .. فرقتان من أربعة أفراد ، تتجهان يمينًا ويسارًا ، والثالثة من ثلاثة أفراد ، تعبر قلب الدغل مباشرة ، وليطلق من يحصل على العربىّ صيحتنا المميّزة ، فنهرع إليه جميعًا .

أطلقوا صيحة موافقة ، ثم انفصلوا ، واتجه (رافاييل) إلى اليمين ، مع فرقته ، وانطلقت فرقة ثانية إلى اليسار ، فى حين تقدّم ثلاثة من أقوى وأضخم الفرسان ، إلى قلب الدغل ..

وعلى الرغم من أن الشمس لم تكن قد تجاوزت كبد السماء إلا بقليل ، كان الضوء داخل الدغل أضعف كثيرًا من خارجه ؛ بسبب تلك الأشجار الوارفة الضخمة ، التى تشابكت أغصانها وتعانقت ، فصنعت مظلّة خضراء ضخمة ، حجبت الكثير من الضوء عن قلب الدغل ، إلا أن هذا لم يثر أدنى اهتمام لدى الفرسان ، الذين بدوا

بأجسادهم الضخمة ، أشبه بعمالقة أسطوريين ، يعبرون غابة خرافية ، وأحدهم يقول فى غضب :

ـ عندما نلتقى بهذا العربىّ ، سأجعله يندم على أنه ولد عربيًا .

أجابه الثانى :

ـ وأنا سأشويه حيًا .

مطّ الثالث شفتيه فى ازدراء ، وقال :

ـ كلّا .. فلنمزقه إربًا ، ونلقيه طعامًا للذئاب .

تناهى إلى مسامعهم فجأة وقع حوافر جواد ، فوق الأغصان الجافة ، فتوقّفوا بغتة ، وأشار الأوّل بيده ، هامسًا :

ـ يبدو أنه فى الجوار .

تحرّكوا بجيادهم فى حذر ، حتى وقعت أبصارهم عليه ..

فارس يمتطى جواده الأبيض ، ويختفى خلف جذع شجرة ضخمة ، وظهره إليهم ..

وفى انفعال ، قال الأوّل :

ـ هذا الغبى لم يشعر بوجودنا .

هتف الثانى فى خفوت :

ـ فليدفع ثمن غبائه هذا .

ثم استلّ سيفه فجأة ، وصرخ :

ـ الموت للعربىّ .

وانطلق بجواده نحو (رفيق) وراكبه ، و ...

وفجأة ارتطم جواده بحبل رفيع ، وهوت الكتلة الخشبية الضخمة ، ذات الأسهم الثلاثة ..

وصهل جواده ..

وصرخ رفيقاه ..

ثم انغرست الأسهم ..

انغرس سهم فى عنق جواده ، وآخر فى ذراعه هو ، وثالث فى جانب عنقه ..

واتسعت عينا الفارس ، وجحظتا فى ألم ، فى حين أطلق (رفيق) صهيلًا قويًا ، وانطلق يعدو وسط الدغل ، فاندفع خلفه الفارسان الآخران ، وأحدهما يصرخ :

ـ الثأر .. الثأر .

وتركا زميلهما ينزف دماءه ، ويتمتم فى صعوبة :

ـ أنقذانى .. إننى أموت .

ولكنهما راحا يطاردان خصمهما فى استماتة ، ورأياه يعبر ما بين شجرتين كبيرتين ، فاندفعا خلفه ، ولوّحا بسيفيهما مهددين ، و ...

وفجأة ارتفع فى مواجهتهما حبل سميك ، يمتدّ بين الشجرتين ، ولم يكن من الممكن التوقّف ، أو تخفيف السرعة ..

وضرب الحبل الفارسين ، واقتلعهما عن جواديهما ، وألقاهما أرضًا ، وهما يسبّان ويلعنان ، ولكن قبل أنْ يطير أثر المفاجأة ، كان (فارس) يقف فوق رأسيهما ، ويهوى بحجر ضخم على خوذة أحدهما ، فيفقد الوعى ، وتطلّع إليه الثانى بذهول ، قبل أن يصرخ :

ـ اللعنـة !

هبّ واقفًا على قدميه ، ورفع سيفه لينازل ويبارز ، ولكن سيف (فارس) تحرّك فى سرعة مدهشة ، ومهارة تستحق الإعجاب ، وضرب بالضبط حيث ينبغى أن يضرب ، ففوجئ القشتالى بسيفه

يقفز من يده ، ويسقط عند جذع شجرة قريبة ، ورأى سيف (فارس) على عنقه ، فكرّر ذاهلا ساخطًا :

ـ اللعنـة !

واتسعت عيناه أكثر ، عندما رأى من خلف (فارس) الجواد العربىّ يعود ، وعلى متنه شاب آخر ، فهتف :

ـ إذن فأنتما اثنان !

تجاهل (فارس) هذا القول ، وهو يقول لـ (عابد) :

ـ قيّد ذلك الفاقد الوعى ، فى إحدى الأشجار ، وسأتولى أنا المهمة نفسها مع هذا .

ودفع القشتالى أمامه ، وراح يقيّده فى إحكام ، إلى جذع شجرة ضخمة ، فقال القشتالى فى مرارة وغضب :

ـ لقد خدعتنا ، ولكنك لن تنتصر على الباقين .

لم يعلّق (فارس) على قوله ، وإنما قيّده وكمّمه جيدًا ، ثم التفت إلى (عابد) ، الذى انتهى من الآخر ، وقال :

ـ هيا بنا .

سأله (عابد) فى حماس ملهوف ، وهو يتبعه :

ـ هل سنعد بعض الفخاخ للآخرين ؟

أجابه (فارس) فى اقتضاب :

ـ ليس بعد .

تبعه (عابد) داخل الدغل ، حتى عادا إلى القشتالى الثالث ، الذى أصابه فخ (فارس) ، فانحنى هذا الأخير يفحص جراحه ، وانتزع منها رءوس الأسهم ، ثم أخرج سكينه ، وقال لـ (عابد) :

ـ اشعل نارًا .

سأله (عابد) فى قلق :

ـ ألن تكشف عن وجودنا ؟

أجابه فى حزم :

ـ فلتفعل .. هذا الرجل يحتاج إلى إسعاف عاجل .

حدّق القشتالى فى وجهه بذهول ، فى حين هتف (عابد) :

ـ إسعاف ؟! .. هل نسعف عدونا ؟

أجاب (فارس) :

ـ إنه لم يعد عدوًا .. إنه الآن مجرّد رجل مصاب ، وجريح يحتاج إلى من يسعفه ، ومن واجبك أن تعاونه ، مادمت تستطيع هذا .

تمتم القشتالى فى تهالك :

ـ أحقًا ما تقول ؟

أجابه (فارس) ، وهو يضع سكينه فوق النار ، التى أشعلها (عابد) :

ـ اصمت يا رجل .. ادخر قوتك .. ستحتاجها فيما بعد .

قال القشتالى ، وهو يكاد يفقد وعيه :

ـ إذن فأنت ستسعفنى أيها العربىّ .. ما أغرب هذا ! .. تصنع فخًا للإيقاع بى ، ثم تبذل جهدك لإسعافى منه ! .. لن أفهمكم أبدًا أيها العربىّ .

تمتم (فارس) :

ـ ولن تفهمنا أبدًا أيها القشتالى .

ثم التقط السكين ، الذى احمرّ نصله ، ووضعه على جرح ذراع القشتالى ، الذى أطلق صرخة مدوية ، ردّد الدغل كله صداها ، ثم تهاوى رأسه دون مقاومة ، فقال (عابد) فى قلق :


أجابه (فارس) ، وهو يكوى الجرح الآخر ، فى عنق القشتالى :
ـ بل فقد الوعى فحسب .. إنه قوى البنية ، وسيحتمل جيدًا ..

ـ هل مات ؟
أجابه (فارس) ، وهو يكوى الجرح الآخر ، فى عنق القشتالى :
ـ بل فقد الوعى فحسب .. إنه قوى البنية ، وسيحتمل جيدًا .
هزَّ (عابد) رأسه ، وغمغم فى حيرة ، وهو يراقبه :
ـ يبدو أننى أشارك هذا القشتالى رأيه .. لن أفهمك أبدًا .
التقط (فارس) نفسًا عميقًا ، دون أن يجيب ، وشعر بالمرارة ، لأن هذا الشاب العربىّ لم يجد من يعلّمه ويؤدبه ، ويغرس فى أعماقه الخصال والطباع العربية العظيمة ، وتقاليد الدين الحنيف ..
وفى نفس الوقت ، كان ذهن (فارس) منشغل بأمر آخر تمامًا .. بالصرخة المدوّية ، التى أطلقها القشتالى ، قبل أن يفقد وعيه .. الصرخة التى ستجذب حتمًا الفرسان الثمانية الآخرين ..
وكل غضبهم وثورتهم ..

★ ★ ★

ردّد الدغل صدى الصرخة ، فتجمّد القشتاليون الأربعة فى الميمنة ، وقال (رافاييل) :
ـ هل سمعتم هذا ؟
أجابه أحد القشتاليين فى توتّر :
ـ يلوح لى أنها صرخة واحد منا .
صاح به ثان :
ـ صه يا رجل .. فرسان قشتالة لا يصرخون هكذا .
أما الثالث ، فتمتم :
ـ إنها قادمة من قلب الدغل .
قال (رافاييل) فى حزم :

ـ وقد تكون خدعة ، لجذبنا إلى هناك ، لذا فسنتبع القاعدة الصحيحة .. سيبقى اثنان منا هنا ، ويذهب اثنان لتقصى الأمر .

وكان من الطبيعى أن يبقى هو ، مع فارس آخر ، وأن يذهب الفارسان الباقيان إلى الداخل ، فقال أحدهما ، وهو يجذب عنان جواده :

ـ سنلتقى هنا مرة أخرى ، أو نستدعيكما بصيحتنا المعروفة .

قال (رافاييل) :

ـ لا بأس .. ولكن احترسا ، فقد تلتقيان بزميلين من الميسرة ، فلا ريب أنهما سيفعلان ما تفعلانه ، وسيتركان زميليهما لحراسة الميسرة .

قال الفارس فى صرامة :

ـ اطمئن .. إننا لا يخطئ بعضنا البعض أبدًا .

ثم انطلق مع زميله فى قلب الدغل ..

ولدقائق ، بدت لهما كل الدروب متشابهة ، ثم قال أحدهما ، وهو يشير إلى طريق شبه مظلم ، تظلله أشجار كثيفة :

ـ أظن الصرخة أتت من هنا .

تطلع زميله إلى الطريق المظلم فى حذر ، وقال :

ـ لا يمكننى الجزم بهذا .

قال الأول :

ـ إنه طريق مناسب لأى هارب ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدق فيما أمامه بتوتر بالغ ، فسأله زميله :

ـ ماذا بك ؟

أشار مرة أخرى إلى الطريق ، وقال :

ـ يلوح لى أن .. أن أحدهم تحرك ، خلف تلك الشجرة الكبيرة هناك .

حاول زميله أن يمدَ بصره ، إلى حيث يشير هو ، وأن يخترق الضوء الضعيف ، والمكان شبه المظلم ببصره ، إلا أنه لم يلبث أن استلّ سيفه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ولماذا نتساءل ؟ .. دعنا نواجه الموقف مباشرة .

دفع الاثنان جواديهما داخل الطريق شبه المظلم ، وتوغلا فيه بعض الشيء ، ثم قال الأول :

ـ هنا رأيته .

اعتدل الثانى على صهوة جواده ، وقال فى صرامة :

ـ اخرج من مخبئك أيها العربىّ .

كان يطلق العبارة جزافًا ، ولكنه فوجئ بـ (عابد) يخرج من خلف جذع الشجرة ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. لقد انتصرتما .

تطلعا إليه لحظة فى دهشة ، ثم قهقه أحدهم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ أهذا من خرجنا لاقتناصه ؟

مطّ الثانى شفتيه ، وقال :

ـ يبدو أن (رافاييل) صار مبالغًا هذه الأيام .

هزّ (عابد) سبابته أمام وجهه ، وقال :

ـ لا أيها القشتاليان .. لست أنا من خرجتما لاقتناصه .

قال أحدهما فى صرامة :

- هل تمزح أيها العربىّ ، أم أصابك الجنون ؟
وقال الثانى ساخرا :
- لو لم تكن أنت من خرجنا من أجله ، فمن إذن ؟
رفع (عابد) سبابته إلى أعلى ، وقال :
- هـو .
وفى اللحظة نفسها ، انقَض (فارس) ..
هبط من أعلى الشجرة على رأس الرجلين كالصاعقة ، فأسقطهما عن جواديهما ، اللذين أطلقا صهيلا قويًا مذعورا ، ثم كان أوّل من هبّ على قدميه واقفا ، وهو يقول :
- استسلما حقنا للدماء .
نهض القشتاليان ، وأحدهما يصرخ فى حنق :
- ويل لك أيها العربى .. كيف تجرؤ .
انقضا عليه بسيفيهما ، ولكنه استقبل السيف بالسيف ، والعنف بالعنف ، وهوى على سيف أحدهما بسيفه ، ثم دفع الثانى بقدمه فى صدره ، وعاد يصدّ سيف الثانى ..
وصلصلت السيوف ، فى قلب الدغل ، وهتف أحد القشتاليين :
- إنه ليس بالفارس العادى ، على الرغم من صغر سنه .
انقَض عليه(فارس) ، هاتفا :
- طريف منك أن لاحظت هذا .
وتجاوز سيف القشتالى بسيفه ، ثم أطاح به فى حركة سريعة ، ولكم القشتالى فى وجهه ، واستدار يصدّ سيف الثانى ، الذى صاح :
- لا تتعجّل الزهو بنجاحك يا فتى .
تراجع (فارس) متفاديا ضربة السيف ، ثم انحنى ، ومال ،

وانقَض من حيث لم يتوقّعه القشتالى ، وضرب يده بذبابة سيفه ، وأدماها ، فسقط السيف من يد الرجل ، وهو يمسك جرحه ، ويطلق آهة ألم ..
ولم يشعر القشتاليان ، فى حياتهما كلها بالحنق والمرارة ، بقدر ما شعرا بهما فى هذه اللحظة ، عندما هزمهما (فارس) ، وأشار إلى (عابد) ، قائلا :
- هيا .. فلنقيّدهما .
تهلّلت أسارير (عابد) ، وقال وهو يجذب حبلًا غليظًا :
- صدقنى أيها الفارس .. العمل إلى جوارك متعة .
لم يعلّق (فارس) ، وإنما التقط بدوره حبلًا آخر ، وقيّد به أحد الفارسين فى سرعة ، و (عابد) يستطرد :
- لن يمكنك أن تتصوّر سعادة أبى ، عندما أخبره ما حدث .
غمغم (فارس) :
- المهم أن نستعيد الأسيرة .
هتف الفارس الثانى فى عصبية :
- الأسيرة ؟! .. أتقصد تلك الأميرة المزعومة ؟ .. يا لك من أحمق ! .. كيف تفعل كل هذا من أجل امرأة ؟
تبادل (فارس) و (عابد) نظرة دهشة ، قبل أن يقول الأوّل :
- ماذا تقصد بكلمة (الأميرة) هذه ؟
أجابه القشتالى فى حدة :
- ألا تعلم أنها تدّعى كونها أميرة تركية ؟
هتف (عابد) :

ـ يا إلهى ! .. الفرنسى الذى باعنا إياها قال هذا ، ولكننا لم نصدّقه .

هتف القشتالى :

ـ الأحمق فقط من يصدّق هذا .

اندفع (عابد) نحوه ، ودفعه فى غلظة ، ثم بدأ يقيّد معصميه خلف ظهره ، وهو يقول :

ـ اصمت يا رجل .. ليس هذا من شأنك .

قال القشتالى فى غضب :

ـ ستموت جزاء هذا .

قال (عابد) فى سخرية :

ـ حقًا ؟! .. ومن سيفعلها أيها الغبى الـ ..

بتر عبارته بغتة ، وأطلق شهقة عنيفة ، وجحظت عيناه فى شدّة ، وسال خيط من الدماء من طرف شفتيه ، عندما انغرس فى ظهره سهم حاد طويل ، وبرز طرفه من صدره ، فى موضع القلب تمامًا ..

وهتف (فارس) :

ـ (عابد) .

ولكن الشاب دار حول نفسه نصف دورة ، ثم هوى جثة هامدة ..

وفى اللحظة نفسها ، برز من خلف الأشجار فرسان (قشتالة) ..

ثمانية من الفرسان ، أحاطوا برجل واحد ..

بـ (فارس) .

★ ★ ★

٥ ـ الأسـير ..

انتفض الشيخ فجأة ، وتلفّت حوله فى قلق بالغ ، قبل أن يهتف :

ـ (مهاب) .. أين (فارس) ؟

أجابه (مهاب) ، الذى جلس يراقب الطريق فى قلق :

ـ لم يعد بعد يا سيّدى .

قال الشيخ :

ـ كيف ؟! .. لقد غادرنا منذ الصباح ، والشمس توشك على المغيب .. أين ذهب ؟ .. ماذا أصابه ؟

تنهّد (مهاب) فى عمق ، وغمغم :

ـ من يدرى ؟

ثم نهض ، مستطردًا :

ـ سأذهب للبحث عنه .

ولكنه تردّد لحظة ، والتفت إلى الشيخ ، مستطردًا :

ـ وماذا عنك يا سيّدى ؟ .. هل تبقى وحدك ؟

أجابه الشيخ فى وقار :

ـ اذهب يا (مهاب) .

التقط (مهاب) حزامه ، وتمنطق بسيفه ، ووثب على صهوة جواده ، وقال للشيخ :

ـ لن أعود بدونه بإذن الله .

قال الشيخ :

ـ على بركة الله .

انطلق (مهاب) بجواده ، وتطلّع الشيخ إلى الشمس الغاربة ، وهو يتمتم فى قلق :

ـ أعده يا رب العالمين .. إنه لم يكمل مهمته بعد ..

وسرح ببصره وأفكاره لحظات ، قبل أن يستطرد :

ـ ولكنه سيحمل إلى آخر يوم فى حياته لقب الفارس .. فارس الأندلس .

★ ★ ★

ثمانية فرسان ، فى مواجهة فارسٍ واحد ..

ثمانية من القشتاليين ، فى مواجهة عربىّ واحد ..

ومفاجأة ..

مفاجأة لصالح القشتاليين ، وضد العربىّ ..

وفى شماتة وظفر ، قال (رافاييل) :

ـ خسرت أيها العربىّ .. لم تقدّر ذكاء وبراعة القشتاليين .. لقد مشّطنا الدغل كله ، بعد أن سمعنا صرخة زميلنا ، وعثرنا عليه فاقد الوعى ، وحرّرنا زميلنا ، وسعينا خلفك ، وأوقعنا بك .

ثم اعتدل فى اعتداد ، واستطرد :

ـ وخسرت أنت اللعبة كلها .

رفع (فارس) سيفه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ومن قال إنها قد انتهت ؟

قالها وانقض فى بسالة على الفرسان الثمانية ..

« لو كان لابد من الموت ، فمت شجاعًا باسلًا » ..

تردّدت عبارة الشيخ فى ذهنه ، وسيفه يتصدّى لسيوف القشتاليين الثمانية ، وراح يقاتل فى استماتة ، وقد وقر فى نفسه

أنه خاسر لا محالة ، وأن أحد السيوف القشتالية سيقتنصه حتمًا ..

وتكالب الفرسان الثمانية عليه ..

وأحاطت به سيوفهم ..

وغلبت الكثرة الشجاعة ..

وأصاب أحد السيوف كتف (فارس) ، ومزّق الثانى قميصه ، وتآزر الثالث والرابع لانتزاع سيفه ، ثم ارتفع سيف خامس ، واستعدّ لطعنه فى قلبه ، عندما ارتفع صوت حاسم :

ـ قف .

توقّف السيف فى الهواء ، قبل أن يبلغ نصله قلب (فارس) ، والتفت الفرسان إلى مصدر الصوت ، ووقعت أبصارهم على زميلهم الجريح ، وهو يلوّح بكفه ، هاتفًا فى توتّر وضعف :

ـ لقد أنقذ حياتى .

تراجع الفرسان فى توتّر مماثل ، وبدا التردّد فى ملامحهم ، فهتف (رافاييل) فى عصبية ، وهو يرفع سيفه :

ـ فلنقتله أوّلًا ، ثم ..

قاطعه زميل فى حزم :

ـ مهلًا .. صحيح أنه قتل بعض الرفاق ، ولكنه أنقذ رفيقًا ، ويستحق فرصة أخرى .

صرخ (رافاييل) :

ـ أيةَ فرصة ؟ .. لو تركتموه حتمًا ستندمون جميعًا .. اقتلوه قبل فوات الأوان .

هتف به ثان :



ألقى (فارس) جسده فجأة فوق العشب .. وأصاب حبلًا يختفى تحت الأوراق الجافة ..

ـ رُويدك يا (رافاييل) .. إنه مجرَّد فارس واحد ، وهو بين أيدينا الآن .

صاح فى حنق :

ـ لقد فعل بنا كل هذا ، وهو فارس واحد .

أشار ثالث إلى جثة (عابد) ، وقال :

ـ بل كانا فارسين .

أطبق (رافاييل) شفتيه فى حنق ، وألقى على (فارس) نظرة ساخطة ، ثم كرَّر فى حدة :

ـ ستندمون .

تجاهل الفرسان تحذيره هذا ، وقال أحدهم لـ (فارس) ، وهو يلوِّح فى وجهه بسيفه :

ـ هيا يا فتى ، تقدَّم أمامنا ، حتى ننظر فى أمرك .

سار (فارس) بينهم عبر الدغل عدة خطوات ، ثم توقَّف فجأة ، فلكزه أحدهم بسيفه ، وهو يقول فى غلظة :

ـ لماذا توقَّفت ؟

أجابه (فارس) :

ـ لن نترك الصبى هكذا .. سندفنه أوَّلًا .

قال قشتالى فى سخرية :

ـ ندفنه ؟! .. أنحرم الذئاب فريسة سهلة مثله ؟

ثم دفعه فى قسوة ، مستطردًا :

ـ هيًا .. تقدَّم أو ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ألقى (فارس) جسده فجأة فوق العشب .. وأصاب حبلًا يختفى تحت الأوراق الجافة ..

وقفز رمح من بين الأشجار ..

وانغرس فى جسد قشتالى ..

ثم ارتفع حبل من الأرض ، وجذبه معه قدم قشتالى ثان ..

وفى غمرة المفاجأة والارتباك والاضطراب ، اختطف (فارس) سيف القشتالى الصريع ، وهوى به على عنق قشتالى ثالث ، ثم أداره ليطعن به الرابع ..

« صحيح أن القتل أمر بغيض ، ولكن الهزيمة أكثر بغضًا .. اقتل أعداءك يا ولدى ، مادمت تقاتل لهدف شريف نبيل ، وليست لديك وسيلة أخرى للدفاع عن حياتك .. » .

هذا ما لقّنه إياه الشيخ ..

وهذا ما يفعله ..

لقد بذل قصارى جهده ، ليتفادى القتل ، ولكنه الآن مضطر ..

إنه دفاع شرعى عن حياته ..

ولكن خصومه كانوا أيضًا من الفرسان ..

ومن الأقوياء ..

وعندما ينقّض عليهم ، مستغلًا عامل المفاجأة ، كان من الحكمة ألا يواصل القتال لفترة طويلة ..

وهذا ما فعله ..

لقد اكتفى بهذه الضربات السريعة المباغتة ، ثم اندفع وسط الأغصان المتشابكة ، و (رافاييل) من خلفه يصرخ :

- لقد حذّرتكم .

كانوا قد فقدوا ثلاثة رجال ، ولم يعد بإمكانهم السكوت على هذا ، فانطلقوا خلف (فارس) ، بكل غضبهم وثورتهم ، وصرخ (رافاييل) :

- حاصروه .. لا تسمحوا له بالفرار .

انطلق (فارس) بكل قوته ، وشعر بهم يلاحقونه فى إصرار ، وعلى نحو يجعلهم على قيد خطوة واحدة من اقتناصه ، فرفع رأسه وهو يعدو بكل قوّته ، وأطلق صفيرًا طويلًا متصلًا ..

وتساءل القشتاليون ، عندما أطلق صفيره :

- من ينادى هذا الفتى ! .. أله رفيق آخر ؟

ولكنه واصل الركض بكل سرعته ، وهو يُطلق هذا الصفير مرة أخرى ، فى حين لحق به أحد القشتاليين ، وصرخ :

- ظفرت بك أيها العربىّ .

رفع سيفه ، ليهوى به على رأس (فارس) من الخلف ، وبدا له الهدف سهلًا مضمونًا ، و ...

وفجأة انطلق ذلك الصهيل ..

صهيل قوىّ ، انبعث على قيد خطوة واحدة منه ، قبل أن يبرز (رفيق) بصدره القوىّ ، وجسمه الممشوق ، من بين الأشجار والأغصان ، وأطلق صهيلًا آخر ، ثم رفع قائمتيه الأماميتين فى وجه القشتالى ، الذى تراجع مذعورا ، وهو يهتف :

- يا للشيطان ! .. أى جواد هذا ؟

وما أن انتهى من عبارته ، حتى أصابته حوافر (رفيق) فى صدره ، وحطّمت ضلوعه ، وألقته بعيدًا فى عنف ..

ودون أن يلقى (فارس) نظرة خلفه ، وثب على متن (رفيق) ، وهتف :

- الآن يا (رفيق) .

انطلق (رفيق) بكل قوته ، وتجاوز الدغل ، وأطاع فارسه ،

الذى وجهه نحو معسكر الفرسان ، وهو يتحدث إليه كما لو كان صديقًا ، ويقول :

ـ هذه هى فرصتنا يا (رفيق) .. سنبلغ معسكرهم ، ونستعيد الأميرة ، قبل أن يصلوا إلى خيولهم ، ويبدأوا مطاردتنا .

كان يُخيَّل إليه أحيانًا أن (رفيق) يفهمه تمامًا ، فقد انطلق بكل سرعته وقوته ، ينهب الأرض نهبًا ، والمعسكر يقترب ويقترب ، دون أن يلوح القشتاليون خلفه ..

وكإعصار جارف ، اجتاح المعسكر ، وتشتت العبيد والخدم من أمامه فى هلع ، فى حين اتجه هو مباشرة إلى الأميرة ، المقيَّدة إلى القائم القوىّ ، وقفز عن جواده ، واستلّ سيفه من غمده ، وهو يهتف بها :

ـ استعدى .. سنرحل على الفور .

هتفت (عصمت) فى ذهول ، وهى تحدّق فى وجهه :

ـ أنت ؟! .. هل أتيت خلفى حقًّا ؟!

قطع قيودها بضربة واحدة من سيفه ، وهو يقول :

ـ ألم تستغيثى بى ؟

تضاعف ذهولها ، وهى تقول :

ـ أخضت هذا ، لمجرَّد أننى استغثت بك ؟!

قال وهو يرفعها فى خفة ، ويضعها على ظهر (رفيق) :

ـ ألا يكفى هذا ؟

ثم وثب على متن جواده بدوره ، وجذب معرفته ، هاتفًا :

ـ انطلق يا (رفيق) .

ولكن فجأة شعر بعمود من النار ، يخترق كتفه الأيسر ، فعض

شفتيه ألمًا ، وسمع (عصمت) تصرخ فى ذعر ، فاستلّ سيفه مرة أخرى ، والتفت يواجه خصمًا يجهله ، ولكن عيناه وقعتا على فارس آخر ، لم يره من قبل ، ينقضّ عليه بهراوة ضخمة ، ويطوِّحها فى وجهه ، فانحنى محاولًا تفاديها ، ولكن السهم المغروس فى كتفه ارتطم برأس (عصمت) ، وأعاق محاولته ..

وهوت الهراوة على رأسه ..

وسمع (عصمت) تصرخ ..

ثم انتهى كل شىء .

★ ★ ★

٦ ـ بين أيديهم ..

غرق قرص الشمس فى الأفق ، وراح يغوص رويدًا رويدًا ، ويضفى على السماء ذلك الوهج الرومانسى الناعم ، بألوانه الممتزجة المتداخلة ، واقترب جواد (مهاب) ، ينهب الأرض بكل قوته ، متجهًا نحو الحدود ، وعلى متنه معلِّم السلاح ، الذى تطلَّع فى توتّر إلى تلك الجبال ، التى تفصل بين (قشتالة) و (غرناطة) ، وتمتم فى قلق :

ـ أين أنت يا (فارس) ؟ .. أين ذهبت يا ولدى ؟

التقطت عيناه ذلك الشيخ ، الذى وقف بالقرب من الحدود ، يتطلَّع إلى أرض العدو فى لهفة وأسى ، فاتجه إليه بجواده ، وسأله :

ـ هل رأيت فارسًا شابًا ، يمتطى جوادًا أبيض ، و ... ؟

قاطعه الشيخ فى لوعة :

ـ لقد ذهب .. رحل هناك .. ذهب .

ارتجف قلب (مهاب) بين ضلوعه ، وهو يقول :

ـ ذهب إلى أين ؟

أجابه الشيخ ، وعيناه مغرورقتان بالدموع :

ـ عبر الحدود ، واصطحب معه ولدى ، ولم يعودا .. لن يعودا أبدًا .

قفز (مهاب) عن جواده ، والخوف يعصف به عصفًا ، وأمسك كتفى الشيخ ، وهو يقول :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟ .. قص علىّ ما حدث .

روى له الشيخ ما فعله (فارس) ، وما أقدم عليه ، فشحب وجه (مهاب) ، وقال فى ارتياع :

ـ ربّاه ! .. إذن فهو هناك ، فى قلب أرض العدو .

ثم وثب مرة أخرى على صهوة جواده ، وانطلق به بكل قوته نحو الحدود ، والشيخ يهتف من خلفه :

ـ ابحث عن ولدى .. ابحث عنه بالله عليك .

ولكن (مهاب) لم يسمعه ..

كان يعبر الحدود وقلبه كله ينتفض ، ويبحث عن جواب لسؤال واحد ..

ماذا فعل (فارس) فى أرض العدوّ ؟ ...

بل ماذا فعل به العدوّ ؟

وبكل ذعره وتوتّره ولهفته ، انطلق نحو الدغل القريب ، واقتحمه بجواده ، على الرغم من الظلام الدامس داخله ، وراح يعدو باذلًا قصارى جهده ، لتمييز الطريق أمامه ، وهو يردِّد :

ـ ساعده يا إلهى ! .. ساعده ..

وفجأة توقّف جواده ، وجفل فى شدّة ، كما لو أنه قد رأى شبحًا مخيفًا ، ورفع قائمتيه على نحو مباغت ، وهو يطلق صهيلًا قويًا ، فاختلّ توازن (مهاب) ، وسقط عن جواده وهو يصرخ :

ـ ماذا أصابك ؟

ثم انتبه فجأة إلى ذلك الشبح ، الذى جفل بسببه الجواد ..

ذلك الشبح الأسود الضخم ..

واتسعت عيناه فى دهشة ..

دهشة عارمة ..

★ ★ ★

استعاد (فارس) وعيه فى بطء ، وشعر بآلام مبرحة فى رأسه ، وحاول أن يمسك جبهته بكفه ، إلا أنه كشف لحظتها أن معصميه مقيدان فى إحكام ، إلى قائم خشبى قوىّ ، بحبل سميك غليظ ، فتمتم فى خفوت :

ـ أين أنا ؟

سمع صوتًا أنثويًّا إلى جواره ، يقول فى لهفة :

ـ هل استعدت وعيك ؟

شعر بالدهشة فى البداية لهذا الصوت ، ثم لم يلبث أن استعاد ذاكرته دفعة واحدة ، واستطاع تمييز ما أمامه وحوله ..

كانت الأميرة (عصمت) مقيّدة إلى جواره ، تتطلع إليه فى لهفة ولوعة ، فى حين اشتعلت نيران كثيرة ، على قيد عدّة أمتار منه ، وحولها التف عدد كبير من الفرسان القشتاليين ..

عدد يربو على العشرين ..

وفى حيرة ، تمتم (فارس) :

ـ ماذا حدث ؟

أجابته (عصمت) همسًا :

ـ إنهم فرسان آخرون ، جاءوا للقاء رفاقهم ، فوجدوك تهاجم المعسكر ، وتحاول إنقاذى ، ولم يكن منهم إلا أن هاجموك ، وأصابوك بسهم فى كتفك الأيسر ، ثم أفقدوك الوعى ، وقيدونا هنا .

شعر لحظتها بالألم فى كتفه الأيسر ، وبالدماء اللزجة ، التى تجمّدت فوقه ، وهمس بدوره :

ـ لماذا تركونى على قيد الحياة ؟

أجابته والكلمات ترتجف على شفتيها :

ـ لست أدرى .. ربما يعدّون لك مصيرًا أسوأ .

لم يشعر لحظتها بالخوف ، وهو يتطلّع إلى الفرسان ، الذين انهمكوا فى تناول طعامهم بشراهة ، ثم سألها :

ـ أأنت أميرة حقًّا ؟!

أجابته فى حزن :

ـ نعم .. أنا كذلك .. أو كنت كذلك .

قال فى هدوء :

ـ الأميرة تظلّ أبدًا أميرة .

قالت فى مرارة :

ـ ليس عندما تقع فى الأسر .

ثم انهمرت دموعها فى مرارة ، فاختلج قلبه لها ، وقال بحماس وشهامة :

ـ أعدك أن أبذل قصارى جهدى ، لإعادتك إلى وطنك ، إذا ما نجونا من هذا .

تطلّعت إليه فى دهشة ، لم تلبث أن تحوّلت إلى دفقة من الحنان ، انهمرت من عينيها ، وهى تقول بصوت متهدّج ، غلبه الانفعال :

ـ حقًّا .

نطقتها بصوت مرتفع ، جذب انتباه الفرسان ، فالتفتوا إليهما دفعة واحدة ، وقال أحد الفرسان ، وهو ينهض :

ـ إذن فقد استعاد وعيه .

ألقى قطعة اللحم من يده ، ومسح فمه بكفه ، ثم اتجه نحوهما ، وتبعه الآخرون ، وعندما اقترب ، ميّز (فارس) فيه وجه (رافاييل) ، فقال فى برود :

أهـو أنت ؟

أجابه (رافاييل) :

ـ نعم .. هو أنا أيها العربىّ .. أنا الذى سيجعلك تدفع ثمن ما فعلت جيّدًا .

قال (فارس) :

ـ ولماذا انتظرت كل هذا ؟ .. لماذا لم تقتلنى وأنا فاقد الوعى ؟ .. لست أظن أن شهامتك هى التى منعتك من هذا .

ابتسم (رافاييل) فى سخرية ، وقال :

ـ بل هى شهوتى للانتقام ، فقتلك وأنت فاقد الوعى لم يكن ليشفى غليلى .. كنت ستموت دون أن تدرك حتى أنك لقيت مصرعك .. أما ما يشفى غليلى حقًّا ، فهو أن ترى بعينيك سيوفنا ، وهى تخترق جسدك ، وتنتزع قلبك من صدرك .. ولقد اتفقنا على أن نطعم قلبك لذئابنا ، ونلقى جسدك وسط الدغل ، حتى تنهشه الضوارى .. أما تلك الأميرة المزعومة ، التى فعلت كل هذا من أجلها ، فستكون اللعبة ، التى نحتفل معها بالقضاء عليك ، قبل أن نقطع أوصالها ، ونعلّق رأسها الجميل على رمح طويل ، فى واجهة معسكرنا .

قال (فارس) فى اشمئزاز وازدراء :

ـ قول لا يصدر إلا عن وغد زنديق جبان .

انعقد حاجبا (رافاييل) فى غضب ، وهو يقول :

ـ أتعرف ما أوّل ما سأفعله بك ؟ .. سأقطع لسانك القذر هذا ، وألقيه طعامًا للنيران .

ثم استدار هاتفًا :

ـ هيا يا رفاق .. سنطعنه طعنة رجل واحد .

صنع خمسة من الفرسان نصف دائرة ، أمام (فارس) ، واستلّ

كل منهم سيفه ، واستعدّ لطعنه به ، وقال (رافاييل) ، وهو يستعد ليسدّد طعنة بدوره :

ـ هيّا .. عندما أخفض يدى ، اطعنوه طعنة رجل واحد .

ابتسموا فى جذل ، وكأنهم يستعدون لمزاولة لعبة طريفة ، فى حين هتفت (عصمت) فى ذعر وارتياع :

ـ لا .. لا تقتلوه بهذه الوحشية .

قهقهوا ضاحكين ، وهتف أحدهم :

ـ أغمضى عينيك يا أميرتى ، لو أن هذا يؤذى مشاعرك الرقيقة .

رفع (رافاييل) ذراعه ، وهتف :

ـ استعدوا يا رفاق .

صرخت (عصمت) مرة أخرى :

ـ لا ..

ولكن (رافاييل) صاح ، وهو يخفض يده :

ـ الآن ..

وانقضت السيوف الخمسة ، على صدر (فارس) ..

وصرخت (عصمت) فى رعب ..

ولكن المفاجأة كانت من نصيب الجميع ..

ففى اللحظة التى خفض فيها (رافاييل) يده ، تعلّق (فارس) بالحبل الذى يربط معصميه ، ودفع قدميه فى سرعة ومرونة إلى أعلى ، ولفّ ساقيه حول عنق (رافاييل) ، وجذبه إليه فى عنف ..

وهوت السيوف ..

واخترقت كلها الجسد ..

جسد (رافاييل) ..



وجحظت عينا القشتالى ، فى ذعر وألم وذهول ، والسيوف
تنفذ من صدره ..

وجحظت عينا القشتالى ، فى ذعر وألم وذهول ، والسيوف تنفذ من صدره ، و (فارس) يقول :

ـ أحسنتم الطعن أيها الأوغاد .

ثم أفلت عنق (رافاييل) ، وتركه يهوى جثة هامدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وصرخ الفرسان فى ثورة :

ـ لقد قتلت رفيقنا .. الثأر .. الثأر .

وارتفعت السيوف كلها ..

ثم هوت على رأس (فارس) .

* * *

٧ ـ فى قلب الليل ..

فجأة ، ارتجَّ المكان كله بصرخة ..

صرخة ارتجفت لها قلوب القشتاليين ، وتجمَّدت لها أيديهم ، قبل أن تبلغ سيوفهم صدر (فارس) ، فالتفتوا إلى مصدرها فى هلع ..

صرخة هوى لها قلب الأميرة (عصمت) بين قدميها ، وخفق لها قلب (فارس) بين ضلوعه ..

ومن قلب الليل برز فارس زنجى ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، على صهوة جواد فى لون الليل نفسه ، حتى لقد بدا وكأن الليل قد أنجبه ، ومنحه صمته وسواده وغموضه ..

ووثب الفارس الجديد بجواده فوق النيران المشتعلة ، فى مشهد رهيب مهيب ، و (فارس) يهتف :

ـ (فهد) .. كنت أتساءل طوال الوقت أين أنت ؟

ومع صرخته الثانية ، هوى سيف (فهد) بكل قوته على الرءوس والصدور والأعناق ، وراح يطيح بالقشتاليين كمنجل حصاد ضخم ، يجتثّ أعواد قمح هشّة ، فى موسم النضج ..

ورفع القشتاليون سيوفهم ، لصدّ الهجوم المباغت ، عندما ظهر (مهاب) فجأة ، وانضمّ إلى (فهد) ، وراح يضربهم فى عنف فهتف (فارس) فى حدّة ، وهو يقاوم قيوده :

ـ دعانى أنضمّ إليكما .

فوجئ بصوت من خلفه يقول :

ـ هيا .. افعل .

واقترن الصوت بضربة سكين ، مزّقت قيود معصميه ، فالتفت إلى صاحب الصوت ، وهتف :

ـ (عابد) ؟! .. أأنت على قيد الحياة ! .. لقد رأيتك بنفسى ، و ...

أجابه (عابد) بسرعة :

ـ لا وقت لهذا .. سأشرح لك ما حدث فيما بعد .. المهم أن تنضمّ الآن إلى رفيقيك .

قالها وناوله سيفه ، الذى فقده وسط الدغل ، فتألّقت عينا (فارس) ، وهتف :

ـ مرحى يا رفاق ..

وانضمّ إلى (فهد) و (مهاب) ..

وأمام عينى الأميرة (عصمت) ، دار أعنف قتال شهدته فى حياتها كلها ..

قتال بين ثلاثة من فرسان العرب ، وعشرين من فرسان (قشتالة) ..

وأريقت الدماء أنهارًا ..

وسقط القشتاليون ..

ولم تمض دقائق ، حتى تحقّق النصر لفرساننا الثلاثة ، وهتف (فارس) فى سعادة :

ـ كيف عرفتما طريقى ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يُقبل عليه فرحًا :

ـ إننى تتبعتك إلى هنا ، والتقيت فى الدغل بـ (فهد) ، الذى عثر على (عابد) ، وأسعفه ، واستعاد سيفك .. وهرعنا كلنا إلى هنا ، ووصلنا لحسن الحظ فى الوقت المناسب .

ثم أمسك كتفيه ، هاتفًا :

ـ لماذا فعلت هذا يا (فارس) ؟

لم يجب (فارس) سؤاله ، وهو يتجه إلى الأميرة ، ويحلّ قيودها ، ويسألها فى رفق :

ـ أأنت بخير ؟

تطلّعت إلى عينيه ، وهى تقول :

ـ بخير أيها الفارس .. ما دمت إلى جوارى .

شعر بالحرج ، وارتبك ، فالتفت إلى (عابد) ، وسأله ليخفى ارتباكه :

ـ كيف نجوت ؟

أمسك (عابد) صدره فى ضعف ، وابتسم فى شحوب ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .. يبدو أن السهم لم يخترق قلبى فعليًا ، فقد استعدت وعيى ، ووجدت رفيقك الزنجى هذا ، وقد انتزع السهم من جسدى ، وكوى جراحى ، وسقانى شرابًا من منقوع الأعشاب ، جعلنى أتعافى فى سرعة مدهشة .

ابتسم (فارس) ، والتفت إلى (فهد) ، وقال :

ـ أحسنت يا (فهد) .. أحسنت كما تفعل دائمًا .

هبط (فهد) عن صهوة جواده ، واتجه إلى حيث يقف (فارس) ، ثم انحنى فى احترام بالغ ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فهتفت (عصمت) فى دهشة :

ـ لماذا ينحنى أمامك ؟

لم يجب (فارس) سؤالها ، وإنما ربت على كتف (فهد) ، وقال ؟

ـ لا تنحنى أمامى مرة أخرى يا (فهد) .. لا تنحنى إلّا أمام الله (سبحانه وتعالى) .

اعتدل (فهد) ، وتطلّع إليه بنظرة امتنان ، ثم استدار ، وانطلق إلى جواده ، ووثب فوقه ، وانطلق به مبتعدًا ، ليبتلعه ظلام الليل مرة أخرى ، فهتفت (عصمت) مبهورة :

ـ من هذا بالضبط ؟.. وإلى أين يذهب ؟

أجابها (فارس) فى ارتياح :

ـ إنه حارسى الخاص .. الذى يظهر دائمًا ، عندما أحتاج لوجوده .

هتف (مهاب) :

ـ هيًا .. لنغادر هذا المكان بسرعة ، فعلينا أن نعبر الحدود بأقصى سرعة ، قبل أن نضطر لخوض معركة جديدة مع القشتاليين .

امتطى الجميع جيادًا ، واستقرّ (فارس) على متن جواده (رفيق) ، وسأله (مهاب) قبل أن ينطلقوا :

ـ لم تجب سؤالى بعد .. لماذا فعلت كل هذا ؟

تطلّع إليه (فارس) لحظة فى صمت ، ثم أجاب فى حزم :

ـ إنه القسم يا (مهاب) .. قسم الفرسان .

وانطلق الجميع عائدين ..

* * *

« أميرتى (جميلة) .. أميرتى (جميلة) .. »

أسرعت الوصيفة إلى جناح الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير (غرناطة) ، وهى تردّد هذا الهتاف ، فاعتدلت (جميلة) على فراشها ، وسألتها :

ـ ماذا هناك يا (زينب) ؟

أجابتها (زينب) لاهثة :

ـ (فارس) هنا .

لهثت الأميرة بدورها انفعالًا ، وهى تقول :

ـ هنـا .

ثم اندفعت فجأة إلى باب جناحها ، ثم لم تلبث أن توقفت ، وتمتمت فى حرج وحياء :

ـ أهو هنا حقًا ؟!

أجابتها (زينب) :

ـ نعم يا أميرتى .. إنه بصحبة مولاى الأمير الآن ، ومعه فاتنة بيضاء ، يقول : إنها أميرة تركية .

تسللت الغيرة إلى قلب (جميلة) ، وهى تقول :

ـ أميرة تركية ؟!

أومأت (زينب) برأسها إيجابًا ، ثم همست فى خبث :

ـ يمكننا أن نستمع إلى حديثهم ، من تلك النافذة فى حجرتك الأخرى . .

ترددت (جميلة) لحظة ، ثم لم يلبث فضولها أن غلبها ، فقالت :

ـ نعم .. هيا بنا .

وعندما وصلتا إلى الحجرة ، واسترقتا السمع ، كان الأمير يقول :

ـ على الرحب والسعة يا (فارس) .. ستبقى الأميرة (عصمت) فى ضيافتنا عدة أيام ، حتى تستعيد صحتها ، وتستريح من عناء ما أصابها ، ثم نرسلها معززة مكرمة إلى موطنها ،

وسأرسل على الفور رسولًا من طرفنا ، مع الهدايا اللائقة المناسبة ، لسلطان (تركيا) ، لأبلغه أن ابنته لدينا .

ابتسم (فارس) فى ارتياح ، وقال :

ـ هذا ما يتوقعه المرء منك يا مولاى .

وتطلعت إليه الأميرة (عصمت) فى قلق ، وشعرت بالحرج لوجود الأمير ، فارتبكت ، وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، ولم يغب هذا على فطنة الأمير ، فنهض قائلًا بابتسامة هادئة وقور :

ـ معذرة .. سأتفقد الجند لحظات ، وأعود إليكما .

لم يكد يغادر المكان ، حتى قالت (عصمت) فى لوعة :

ـ (فارس) .. لا تتركنى هنا خذنى معك .

أجابها (فارس) :

ـ معسكرنا الصغير لا يليق بك يا أميرتى .

هتفت :

ـ سأقيم فى أى مكان تقيم به .. صدقنى .

قال فى رفق :

ـ أنت أميرة ، وأنا فارس أندلسى ، أمامه مهمة محدودة ، لا تسمح له بالعيش كالآخرين ، ولا بالزواج فى هذا العمر .

قالت بلهجة أشبه بالضراعة :

ـ خذنى جارية .

هتف مستنكرًا :

ـ جارية .

أجابته فى حنان وحب :

ـ نعم يا (فارس) .. لولاك لكنت الآن أحقر من جارية ، ومن

أجلك أتنازل عن حياة الملك ، وحتى عن حريتى ، ولن أندم على هذا أبدًا يا (فارس) .. صدقنى .

كان يشعر بالحنان تجاهها ، ولكنه قال فى هدوء ، وهو ينهض واقفًا :

ـ أصدّقك يا أميرتى ، ولا أحبّ أن أخدعك .. قلبى ليس ملكًا لك الآن .. إنه ملك لأخرى .

تراجعت شاحبة ، وهى تقول :

ـ أخرى ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وتمتم :

ـ نعم .. أخرى عربية ، منحتها قلبى منذ زمن .

قالها وتطلّع إلى (عصمت) مشفقًا ، وهى تنكمش فى مكانها ، والدموع تترقرق فى عينيها ، ثم استطرد :

ـ الوداع يا أميرتى .. الوداع .

خفضت عينيها ، وتركت الدمع ينهمر منهما غزيرًا ، فى حين غادر هو القاعة بخطوات سريعة ، والأميرة (جميلة) تتابعه بنظرها خلسة من أعلى ، وقلبها يخفق فى لهفة ..

تُرى من يقصد بتلك التى منحها قلبه ؟

وفى قلبها انتعش الأمل ، تجاه ذلك الذى منحته هى قلبها .. الفارس ..

فارس الأندلس ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]